## قراءة في رحلة محمد أمين دوغان الى الاتحاد السوفييتي:

# نقد الذات وتمجيد الآخر في هواجس وتطلعات مثقف لبناني

بوشعيب الساوري*

■ ان من يتناول رحلة محمد امين دوغان «أيام في ارض السلام»(1) التي قام بها للاتحاد السوفييتي في الثمانينيات من القرن الماضي لا بد له ان يستحضر السياق العام الذي تمت فيه، لانه حاضر بقوة في الرحلة وموجه لها من حيث اللغة والاسلوب والقضايا التي تناولها والمشاهدات التي اهتم بها.

يتشكل سياق هذه الرحلة من المكونات التالية:

ـ الحرب الداخلية في لبنان. (لحظة الازمة)

ـ علاقة العرب مع الاتحاد السوفييتي.

ـ علاقة العرب مع امريكا واسرائيل.

فلا يمكننا قراءة هذه الرحلة دون استحضار هذه الاشارات الاساسية لانها تحكمت بشكل كبير في اقوال ومواقف واحكام الرحالة تجاه كل المشاهدات في الاتحاد السوفييتي الذي نعته بأرض السلام مقابل بلده (بلد الحرب والتناحر) مع حلمه بعودة السلام اليه (لبنان). الرحلة اذن نتاج لظروف تاريخية محددة تجلت في الحرب اللبنانية التي وجهت احكام الرحالة ومشاهداته وانتقاءاته واختياراته لبعض المشاهد دون غيرها فحملها بكثير من الدلالات المعبرة عن السياق التاريخي والعرف العام للرحلة. ومن الامثلة على ذلك حضور الحمام برمزيته القوية على السلام الذي يشكل هما ينشده الرحالة وكل لبناني يعاني من ويلات الحرب.

### 1. طبيعة الرحلة

يتعلق الامر برحلة قصيرة لم تتجاوز إثني عشر يوما تبدأ بالخروج من بيروت: «كان انطلاقي من بيروت الساعة السادسة من صبيحة الجمعة الرابع عشر من حزيران (يونيو) الموافق خمساً وعشرين من رمضان». (ص 13) وتنتهي بمغادرة موسكو: «وهكذا صحوت في السابع والعشرين من حزيران (يونيو) وكان كل شيء بانتظار الطائرة... وتوجهنا الى المطار». (ص 98).

لقد تمت هذه الرحلة القصيرة سنة 1985 بعد ثلاث رحلات سابقة الى الاتحاد السوفييتي. يقول الرحالة: «لانني تعرفت الى الاتحاد السوفييتي قبل ذلك ثلاث مرات وكتبت الكثير عن بلاد الاصدقاء». (ص 11) ويقول عن رحلته الاولى التي تفصلها عن هذه الرحلة ثمان وعشرون سنة: «وتذكرت اليوم الذي زرت فيه الاتحاد السوفييتي عام 1957 اي منذ ثمان وعشرين سنة». (ص 97).

يحدد صاحب الرحلة في المقدمة التي استهل بها رحلته الهدف منها قائلا: «اعترف اولا بأن رحلتي الاخيرة الى الاتحاد السوفييتي قد كانت سياحية بناء لرغبتي حيث عقدت العزم ان تكون للاستجمام تنسيني متاعب المهنة وهموم الحياة». (ص 7) ويقول مرة اخرى محددا طبيعة رحلته: «ان هذه الرحلة ليست عادية فقد اردتها سياحية وانا سياسي فاصبحت كمن يقف بين بين». (ص 11) فكانت رحلته بالفعل من اجل الراحة والاستشفاء والعلاج من ازعاج الحرب اللبنانية الداخلية وويلاتها. لكن السياسي فيه لم يسترح فغلب على السياحي. وذلك تبعا للسياق الذي تمت فيه الرحلة وكذلك الشخصية التي قامت بالرحلة (صحافي سياسي).

### 2. الرحلة وقضايا الساعة

لا بد للرحلة من ان تحمل بصمات عصرها انطلاقا من السياق الذي تمت فيه فكانت فرصة للتطرق الى قضايا الساعة سواء تلك المتعلقة ببلد الرحالة او البلد المرتحل اليه او قضايا دولية مما يجعل الرحلة مرآة عاكسة لسياقها. ومن القضايا التي طرحتها:

ـ حرب النجوم والسباق على التسلح بين القطبين امريكا والاتحاد السوفييتي آنذاك وخطره على الاتحاد السوفييتي.

ـ الصراع العراقي الكويتي وموقفه من ذلك: «اعتبر الكويت والعراق بلدا واحدا وارضا واحدة وشعبا واحدا». (ص 99).

ـ الاسلام السياسي وموقفه من الحركات الاسلامية. يقول: «وكيف ان الاسلام بمفهومه الايماني يختلف كثيرا عن الاسلام السياسي الذي اصبح مع الاسف في خدمة انظمة معروفة ليس في سلوكها رائحة الايمان او وجه الحق والاسلام!»(79).

ـ الاحتلال السوفييتي لافغانستان.

تعكس هذه القضايا انشغال الرحالة بما كان يجري على الساحتين الاقليمية والدولية من صراعات. وذلك بحكم مهنته وهو ما اثر على نوعية الاهتمامات في الرحلة. ولهذه القضايا السياسية الكبرى امتداد زمني في راهننا: اذ لا زالت تداعياتها ماثلة امام الاعيان بصورة او باخرى.

### 3. نقد الذات

اثرت كل من الحرب وغياب الامن على موقف الرحالة من الاتحاد السوفييتي اذ عمل على تزيين صورته مقابل تقبيح صورة الانا. يقول: «في بلاد الناس اصبحت المعجزات الخارقة عملا روتينيا وفي بلادنا اصبحت المصائب الماحقة الساحقة شيئا تقليديا». (ص 93) ويقول كذلك: «تذكرت وانا اجمع حقيبتي انني احببت ان اغادر موسكو وانا اضحك فقد اشتقنا للضحك حتى ان المصائب تشرشحت فلم تعد «مضحكة»! «وشر المصائب ما يضحك»! فكيف اذا كانت هذه المصائب روتينية تقليدية!» (ص 92).

وهو بهذا القلب المقصود لصورتي الانا والاخر يناقض تماما رحالة القرن التاسع عشر الذين كانوا يزينون صورة الانا مقابل تقبيح صورة الآخر على الرغم من الانبهار بمنجزاته. وقد كان اهتداؤه الى هذا القلب انطلاقا من مجموعة من المؤشرات كان اهمها النقد الذاتي والوعي بأخطاء الماضي والحاضر مع ضرورة استشراف النموذج السوفييتي واستلهامه بحثا عن غد افضل يسوده السلام.

ـ الوعي بالخطأ: ينبع نقد الذات العربية واللبنانية من انجلاء الاوهام التي كان ينشدها العرب بعد حرب 67 ودخول اسرائيل لبنان. كل هذه الرجات لا بد ان تحمل المثقف العربي على التخلي عن كل قناعاته ويقيناته الثابتة، لتصل الذات الى مستوى من الوعي تتأكد فيه ان الخلل والخطأ نابعان من داخلها. من ذلك غياب النظام. يقول: «كعادة اللبنانيين الذين يحترمون النظام». (ص 95). والجهل والاقتتال بدون هدف. يقول: «وفكرت في وطني حيث يقتتل اللبنانيون بسلاح الجهل والعمالة بسلاح الحقد والنذالة وقلت في نفسي عن اللبناني العاجز عن حماية نفسه بنفسه لن يجد الحماية من احد! فما لا تستطيعه انت لنفسك لا يستطيع احد ان يقدمه لك احد هدية». (97)

ـ مشكلة القيادة التي لا تحسن تدبير امور البلد السياسية بالاضافة الى استشراء الفساد في صفوفها. يقول امين دوغان: «انا واثق جدا من ان المسلحين الذين يداهمون البيوت ويسرقون الناس ويعتدون على الكرامات ما كانوا ليجرؤون على ذلك لو لم تكن في قيادتهم العليا منافذ وعيوب!» (ص 44ـ45).

ـ انتقاد بعض السياح العرب وتصرفاتهم التي تنحرف عن الطابع السياحي الموسوم عادة بروح الاستكشاف: «فهم مدعوون في رحلة سياحية ليروا البلاد لا ليروا الفنادق والمطاعم وغرف النوم!» (ص 68).

وعلى الرغم من كل هذا الانتقاص من صورة الذات فان الرحالة لا تفوته الاشادة بالمقاومة في جنوب لبنان والتي تعد نقطة الضوء الوحيدة في سواد لبنانه. يقول: «ولو اردنا ان نختار التراب البطولي لانتقلنا الى لبنان الجنوبي حيث يؤخذ تراب العمل الفدائي الرائع الذي واجه العدو بالجسد العاري وسحق الحديد والنار والبارود!» (ص 69).

### 4. منطق الثنائيات

يقوم الرحالة بربط كل مشاهداته بوطنه لبنان مؤشرا على خاصية المقايسة التي توظف في الرحلة اذ يحمل الرحالة معه وطنه في الحل والترحال ويقيس عليه كل ما يصادفه في مجال المغايرة والاختلاف الثقافي فيضمن الرحلة مجموعة من الثنائيات تتأطر داخل ثنائية كبرى هي الأنا والآخر.

ـ الداخل والخارج وتنبني على مفارقات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وامنية بين بلده لبنان والبلد المرتحل اليه الذي تحضر فيه قيم تنعدم في بلده. يقول معبرا عن شعوره بالامن والارتياح في الاتحاد السوفييتي: «في بلاد الناس تشعر انك انسان في لبنان تشعر انك مهان!». (ص 44) وقد تقوى هذا الشعور عند انتباهه الى العناية التي يحظى بها المتفوقون في الاتحاد السوفييتي (ص 62) ويستيقظ الصحافي فيه فيقدم احصائيات تبرز تقدم الاتحاد السوفييتي مقابل انحدار بلده وانغماسه في الحروب. يقول: «في لبنان فقد بنينا وطنا من زجاج على قاعدة من هباء». (ص 98).

تترتب عن ذلك ثنائية اخرى وهي ثنائية الواقع المرفوض والحلم المأمول الممكن المتمثل في الامن والسلام والتعايش بين الطوائف.

ـ الأمن /اللاأمن: يحمل الرحالة معه هاجس الحرب وويلاتها وافتقاد الامن ببلده الذي كان فرصة لتجلي هذه الثنائية بشكل كبير في الرحلة. يقول: «نعم الاحساس بالامن هو اعظم ما يشعر به اللبناني حين يخرج من لبنان» (ص 44) ويقول مرة اخرى: «في بلاد الناس تشعر انك انسان في لبنان تشعر انك مهان». (ص 44)

ـ الحرب /السلم: لقد جعل الرحالة من الاتحاد السوفييتي ارضا للسلام انطلاقا من عتبة العنوان «ايام في ارض السلام» وكذلك الغلاف الخارجي الذي يتضمن حمامة ترمز عادة الى السلام: اي انه رحل من ارض الحرب الى ارض السلام، اذ تكررت كلمة السلام كثيرا دالة على رغبته الجانحة الى السلم. يقول معبرا عن اعجابه بالجو العام الذي كانت تنعم به مدن الاتحاد السوفييتي من سلام: «الطيور تملأ الساحة مع السابحين ما اروع التعايش السلمي بين الانسان والطير». (ص 42) مقابل ذلك يتحسر على جو الحرب الذي افسد على اللبناني التمتع بكل المناظر الطبيعية الجميلة ببلده: «ففي لبنان حرام على اللبناني ان يعيش شمس بلاده وماء بحره وهواء جباله! حرام على اللبناني ان يعيش!». (ص 45).

ـ التفاهم/ الخلاف: يستمر الرحالة في الاعلاء من قيمة منجزات الآخر مقابل الحط من افعال الانا مبرزا قيمة اخرى هي التفاهم الذي يسود بين مواطني الاتحاد السوفييتي والذي عده الرحالة حافزا لهم على التقدم والتفوق. يقول: «كل مواطن سوفييتي مسؤول عن بناء وطنه لا فرق بين ذكر وانثى ولا بين طائفة وطائفة ولا بين قومية وقومية ولا بين مذهب ومذهب فالكل يعمل ويبني يصنع ويشيد!». (ص 8).

هكذا يمكن ان نرصد في الرحلة معجما للمتضادات والمتقابلات السلام /الحرب الامن/ الخوف التفاهم/ الخلاف الوحدة/ التشرذم والطائفية النظام/ الفوضى... تتأطر ضمن ثنائية الهنا والهناك والاختلاف بين سلبيات الانا وايجابيات الآخر.

### 5. البديل

كان الرحالة يبحث دائما عن اسباب وخلفيات المنجز السوفييتي بالتأشير على المواصفات المميزة التي كان يقدمها له والتي يرجعها الى الوحدة والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات وغيرها من القيم والامتيازات التي افرزتها الثورة. لذلك تراوحت مواقف الرحالة من الحلول المقترحة لتجاوز الأزمة بين:

ـ تمجيد الوحدة من خلال نتائجها وآثارها الايجابية على بعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي. يقول عن تطور الزراعة في استونيا: «لقد كان في استونيا 140الف مزرعة صغيرة قبل انضمامها للاتحاد السوفييتي فاصبحت تضم 300الف مزرعة كبيرة! هذه هي قوة الوحدة في وحدة القوة الانتاجية». (ص 31).

ـ الايمان بالثورة: يقول ممجدا الثورة السوفييتية: «هذه الثورات هي التي تحيي الارض بعد موتها». (65)

ـ الايمان بان الحل قد يأتي على رجل واحد كعبد الناصر: «وكنت اجيب: عندما يصبح في بيتنا رجل!» (ص 38).

### تركيب

تقدم لنا هذه الرحلة صورة عن هواجس وتطلعات مثقف لبناني عايش الحرب اللبنانية وعانى من ويلاتها، فينتقد الذات بخيباتها وسلبياتها بالمقارنة مع الآخر بمنجزاته وايجابياته. ويضعنا امام ثنائيات ولدها التعارض بين ما وجده بالاتحاد السوفييتي وما كان يعدمه ببلده. كما تقدم لنا صورة عن سياقها التاريخي ومشاكله وقضاياه السياسية.

---

* كاتب من المغرب

(1) ـ محمد امين دوغان «ايام في ارض السلام» رحلة سياحية لكاتب سياسي. منشورات دار الشعب لبنان د. ت.

# بيت الشعر الفلسطيني يدين اعتقال الشاعر عثمان حسين

■ رام الله ـ كعادته دائماً يواصل الاحتلال استهداف كل ما هو جميل وحر ومعافى.. في سياق القبح والبشاعة التي تعممها أيدي الاحتلال السوداء.. التي اعتقلت الشاعر عثمان حسين من غزة.. مهددة بهدم منزله تماماً مثلما هدمت منزل أحد أقربائه.

ان بيت الشعر ومعه عموم المثقفين الفلسطينيين يدينون هذه الأفعال الهمجية التي تتواصل يومياً في غزة وبلادنا التي تصر على الحياة والمواجهة والانحياز لأسباب البقاء دفاعاً عن الحرية وايقاعها المحمول على الدم المجيد والتضحيات الجسام ..

وعبر سنين طوال واصل الاحتلال وبغير وسيلة وطريقة ملاحقة الكلمة الفلسطينية ومجترحيها فاغتال الشعراء والكتاب والرواة، حتى مركز الأبحاث في بيروت لم يسلم فقد تعرض كذلك لعملية اغتيال بشعة وقرصنة لا تصدر الا عن احتلال يمعن في الشطب والالغاء والمحو.

اننا نطالب اتحادات الكتاب والمنشغلين بالهم الابداعي والنقابي في عمقنا العربي لاعلاء الصوت لاطلاق سراح الشاعر عثمان حسين وفضح ممارسات هذا العدو الذي يحتجز الجمال وصانعيه ضمن سياسة كم الأفواه والاسكات التي ينتهجها هذا الاحتلال.. كما نطالب المثقفين في العالم والمنظمات الانسانية والدولية بالضغط عبر السفارات ومختلف الأدوات للدفاع عن الابداع والشعر وتحريم المس بالمبدعين حماة الحرف وحراسه.

يذكر أن الشاعر عثمان حسين مواليد رفح ـ غزة عام (1963). حصل على درجة الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية ـ الاسكندرية عام (1984)، كما حصل على درجة الماجستير في الأدب الفلسطيني من جامعة العالم الأمريكية ـ فرع غزة (2002). عضو اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ومؤسس ورئيس تحرير مجلة «عشتار» الأدبية، مؤسس ورئيس جمعية «عشتار» للثقافة والفنون. شغل منصب رئيس القسم الثقافي في صحيفة «الوحدة» الظبيانية ـ الامارات (1985 ـ 1989)، وكذلك سكرتير اتحاد الكتاب الفلسطينيين (1991 ـ 1993)، كما شغل منصب المدير التنفيذي لمؤسسة بيسان للاعلام (1993 ـ 1997)، ويشغل حالياً منصب مدير الدائرة الثقافية في مركز التخطيط الفلسطيني.

وقد أصدر الشاعر «رفح.. أبجدية ومسافة وذاكرة» ـ بالاشتراك مع خالد جمعة (1992). البحار يعتذر عن الغرق (1993). من سيقطع رأس البحر (1996). له أنتِ (2000). الأشياء متروكة الى الزرقة (2004).

# الإسلام السياسي وعلاقته بالمواطنة وحقوق الأقليات في العدد الجديد من دورية «حصاد الفكر»

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد 172 آب (اغسطس) 2006 من تقرير «حصاد الفكر» عن مركز الاعلام العربي بالقاهرة.

يناقش ملف هذا العدد من خلال خمس دراسات متنوعة ومكاملة ـ اشكالية المواطنة، والانتماء والهوية في اطار التعايش مع الآخر أو التعامل معه في العقل المصري خصوصا، العربي الاسلامي بصفة عامة لاجهاض حالة الاحتقان الطائفي الراهنة التي قد تتخذ ذريعة للتدخلات الخارجية التي تمس سيادة الدولة واستقلالها، وكذلك استقرارها السياسي والاجتماعي.

تتبع الدراسة الأولى التي أعدها د. سليم نجيب «الاقباط عبر التاريخ» تاريخ الاقباط ووضعهم في النظام السياسي للمجتمعات الاسلامية وحقوقهم السياسية والقانونية كأقلية دينية.

ويحاول محمد محفوظ في دراسته «الآخر وحقوق المواطنة» تأصيل وتعميق مفهوم الآخر، ويدعو الى التعامل مع حقائق التعددية المذهبية والفكرية بعقلية ايجابية حضارية وبصورة تحمي الوحدة الوطنية من خلال مواطنة متكاملة الحقوق والواجبات.

ويلقي د. أندريه زكي في دراسته حول «الاسلام السياسي والمواطنة والأقليات، في الشرق الأوسط» الضوء على العلاقة بين الدين والسياسة في الشرق الأوسط ومستقبل المشاركة السياسية للمسيحيين كأقليات دينية في العالم العربي تحت مظلة العروبة التي تصهر الاختلافات الدينية جميعها في بوتقة واحدة.

ويقوم سمير مرقص بدراسة أولية حول تأصيل مفهوم «المواطنة والتغيير» ومحاولة نقله من دائرة الحق القانوني الى دائرة الممارسة والتفعيل الواقعي للحقوق والواجبات على أرض الوطن.

ويستشرف مركز البحوث والدراسات السياسية «مستقبل المواطنة المصرية والديمقراطية» في ندوته الموسعة حول هذا المفهوم وما يتعلق به من اشكالات الانتماء والهوية والمشاركة والتعددية والتغيير السياسي والمجتمع المدني والعدالة والمساواة.

ويقدم باب «سياسة واقتصاد» تقريرا أعده مركز سواسية لحقوق الانسان حول «الانتخابات البرلمانية 2005م» التي شهدت حالة غير مسبوقة من الحراك السياسي والكفاح من اجل الاصلاح السياسي والدستوري في مواجهة جمود النظام السياسي القائم – شاركت فيه كل من المعارضة والمؤسسة القضائية ومؤسسات المجتمع المدني وفي الباب نفسه دراسة اكاديمية منشورة للأستاذ أشرف محمد كشك حول «السياسة المائية المصرية تجاه دول حوض النيل» قدم فيها رؤية تحليلية لمنهج السياسة المائية المصرية تجاه دول حوض النيل، باعتبار أن المياه سلعة استراتيجية نادرة وليس لها بديل في مصر، مما يجعل تأمينها والحفاظ عليها قضية أمن قومي بالنسبة لها.

أما في باب «العمل الاسلامي» فيدعو طه عبد الرحمن الى تأسيس الحداثة الاسلامية، انطلاقا من التمييز بين «روح الحداثة» التي ينبغي حفظها والبناء عليها وواقع الحداثة، الذي يمكن تركه الى واقع أكثر حداثة، ويقر بأن الحداثة الغربية المادية ان جاءت بالخير للبشرية، فان معالم هذه الخيرية قد تضمنها الاسلام وقدم معها ما غفل عنه التطبيق الغربي للحداثة.

ويقدم «باب التاريخ» دراسة موسوعية للدكتور علي شريعتي بعنوان «تاريخ الحضارة» محددا مفهوم الحضارة والعوامل التي أسهمت في بناء الحضارة الانسانية ونهوضها أو أفولها استنادا الى خصائص الحضارة المعاصرة بما تشهده من الاستعمار العالمي وغلبة الآلة وموت الثقافات البشرية والتغريب الثقافي وارتفاع معدل الجريمة والامبريالية والديمقراطية بمفاهيم ودرجات مختلفة.

ويحاول باب الادارة الاجابة عن سؤال: كيف تجذب الشركة نخبة من الموظفين الأكفاء وتحتفظ بهم؟ من خلال دراسة د. فرانكلين آشبي حول «تبني التفوق» وموقع العنصر البشري في نجاح المؤسسة وفي توظيف الكفاءات وتأهيلها للمكان المناسب في اطار أهداف الشركة، وخططها الانتاجية القريبة والبعيدة المدى.

ويقدم مايكل كوربالیس دراسة تاريخية لغوية قيمة حول «نشأة اللغة» وانتقالها من اشارة اليد الى نطق الفم، وجهود الأمم والحضارات في الاعتزاز بلغاتهم واحيائها بعد موات.

وعن الدور الذي تلعبه وسائل الاعلام بصورها المختلفة كوسيط في الاتصال بين الحكومات والجمهور «المواطنين» وساحة للصراع حول الأخبار بين الطرفين تدور فصول كتاب «سياسة الاخبار وأخبار السياسة» الذي قام بتحريره دوريس جرابر وآخرون في باب الفكر الغربي.

ويدعو عبد الله أحمد اليوسف من خلال دراسته «ثقافة العمل التطوعي» الى احياء الدور المنتظر للعمل الأهلي التطوعي، والذي يعد مؤشرا لمدى نضج المجتمع، وما وصل اليه من وعي ورشد في تنمية الطاقات واستثمار الكفاءات في تعضيد المسؤولية الفردية والجماعية تحت مظلة التكامل لخير المجتمع وسعادة أفراده.

ويتابع باب «ندوات ومؤتمرات» فعاليات الندوة التي نظمتها رابطة الجامعات الاسلامية بجامعة الأزهر الشريف حول «الاسلام بين الوسطية والتشدد: مراجعة للفكر المتطرف» داعيا من خلالها الى التزام الوسطية التي جاءت في القرآن والسنة وعمل السلف الصالح فكرا وعملا باعتبارها السبيل الوحيد لاصلاح البيت الاسلامي من الداخل، وتفويت فرصة النفاذ الينا من قبل أعدائنا عبر نافذة التطرف والمغالاة.

وفي ضيافة هذا العدد عاشق الوحدة العربية الأديب المفكر والمفكر الأديب د. عصمت سيف الدولة الذي قضى حياته في مواجهة الظالمين دفاعا عن المظلومين، وموضحا طريق النجاة للباحثين عن الحرية في أحضان العربة المستقلة.

## قليل من كثير عن هذه الحرب (2)

# انقاذ الايراني كتساف وسؤال مواطني كريات شمونة عن التعويضات... والصحافة بوصفها كلبا!

سلمان ناطور*

■ هل الحرب تفك عقال الجنون؟ يعني! هل يكثر المجانين في اثناء الحرب! وهل الجنون يصبح شرعيا ومقبولا؟

لا اعرف الجواب ولكنني اعرف ان من حق الانسان ان يواجه جنون الحرب بجنون انساني! يعني مثلا ان يقرر تعتيم شاشة التلفزيون فلا يرى شيئا من ويلات الحرب (عين لا تشوف! قلب لا يحزن) ومن حق الانسان ان يتوتر ويشتم وان يخربط في الحكي وان يشعر برغبة جنسية كلما زعقت صفارة الانذار مثلا! وكل ذلك ليعبر عن رفضه للحرب (كما قال رجل بسيط). وفي الحرب يختفي الحد الفاصل بين الواقع والخيال وبين الممكن والمستحيل وبين المبكي والمضحك! لان سؤال الحرب هو سؤال مجنون: لماذا كل هذا القتال؟

لقد غاب الاسرائيليون شهرا كاملا في عالم الفانتازي! كانوا سكارى ولما عادوا الى رشدهم باغتهم السؤال المجنون: لماذا كل هذا القتال؟

### الحرب والجنس

قد لا يكون الاسرائيليون على خطأ حين يزعمون ان ايران كانت المدبر والمخطط والمبادر لهذه الحرب! وبامكان الرئيس الايراني، المغضوب عليه اسرائيليا وامريكيا، ان يعتز بهذه «التهمة» لانه بادر الى هذه الحرب دفاعا عن مواطن ايراني الاصل (مثلما ان اسرائيل بادرت الى هذه الحرب دفاعا عن جنديها المخطوفين)، واما المواطن الايراني فهو رئيس الدولة الاسرائيلية موشي كتساف الذي اتهم عشية الحرب بفضيحة التحرش الجنسي باحدى موظفاته واحتل اسمه عناوين الصحف وصوره صفحاتها الاولى وارتفعت اصوات طالبت باستقالته! ولم ينزله عن العناوين سوى الحرب التي «بادرت اليها ايران»، ما يفسر دعم الرئيس كتساف المطلق للحرب، مستفيدا من ايرانيته بتوقيتها ومن اسرائيليته بجبروتها.

وما دام الحديث عن الحرب والجنس فان هذه الحرب لم تسعف وزير العدل (شوف هالعدل!) حاييم رامون المتهم بتقبيل موظفة في شفتيها رغما عنها. وفي الاجواء التي خلقتها الحرب كان هناك نقاش: هل التهمة انه قبلها ام لانه قبلها في شفتيها ام لانه رغما عنها؟ ستضطر العدالة الاسرائيلية الى الخوض عميقا في هذه الاسئلة وقد تطغى على السؤال الذي تطرحه الحرب: هل قتل اطفال قانا كان خطأ ام خطأ مقصودا ام كان قصدا مقصودا؟

### الحرب والبورصة

هل استغل رئيس الاركان دان حالوتس وظيفته لينقذ اسهمه في البورصة؟

رهيب هذا السؤال في اليوم الاخير للحرب! لان حالوتس قد يضطر الى الاستقالة على هذه الخلفية. وهل على هذه الخلفية يجب ان يستقيل؟ قد تكون هذه اشرف تهمة توجه الى عسكري من امثال حالوتس! ويستطيع ان يخلع بزته العسكرية مرفوع الرأس لانه انقذ اسهمه، فهذا ماله وهذا حقه ولديه متسع من الوقت لهاتفة موظف بنك وليقول له كلمة واحدة: بيع الاسهم يا عبود! (على وزن جيب المجوز يا عبود للمطربة اللبنانية صباح) حتى قبل ساعات من اعلان الحرب مثلما ان قائد اركان قد يجد الوقت لقضاء حاجاته الشخصية الخاصة حتى وقت الحرب كان يذهب الى الحمام او التواليت مثلا او يحلق ذقنه. وهذا يستغرق وقتا اكثر من مهاتفة موظف بنك.

ولكن هذا الضابط الكبير لن توجه له العدالة الاسرائيلية (شوف هالعدالة!) السؤال: كيف تقول انك كطيرجي لا تشعر بشيء عندما تقصف بيتا وتقتل فيه 14 طفلا الا باهتزاز خفيف لجناح الطائرة عندما تطلق قنبلة الالف كيلو؟ هذا في غزة وفي لبنان من سيجيب على كل الاسئلة المتعلقة بجرائم الحرب؟ العدالة الاسرائيلية (شوف هالعدالة!)؟ عندما توجه العدالة السؤال الى اسرائيل والاسرائيليين سيقولون ان المسؤول قد ذهب الى البيت وقد اقالته العدالة الاسرائيلية. فعلا! شوف هالعدالة!

### البحث في الردم

ما ان وضعت الحرب اوزارها حتى بدأ النازحون اللبنانيون عودتهم الى بيوتهم المدمرة. هذه الجملة ترددت في الفضائيات العربية بعد الساعة الثامنة من صباح الرابع عشر من آب (اغسطس) 2006 حين دخل قرار وقف اطلاق النار حيز التنفيذ. عاد اللبنانيون الى اكوام الردم مرفوعي الرؤوس وما رأيتهم يخرجون من الركام الا الكتب. رأيت سيدة تنبش في الردم وتخرج كتابا تنفض عنه الغبار وتحمله وتذهب ورأيت عائلة، رجلا وامرأة وطفلين ينبشون ويخرجون الكتب وينفضون عنها الغبار ويضعونها في صندوق. والاسرائيليون عادوا الى كريات شمونة المقصوفة. لم يبحثوا عن كتب بل وقفوا امام ممثل البلدية وهم يصرخون في وجهه: اين كنتم واين انتم وماذا عن التعويض؟

من انتصر في هذه الحرب؟

هل ما زال احد يسأل هذا السؤال؟

### كلاب الحراسة

يحلو للبعض ممن يتابع الصحافة في العالم ان يسميها كلب الحراسة للديمقراطية! وهناك من يبالغ في وصفها بانها الكلب الامين لحراسة الديمقراطية. وما هذا الوصف الحيواني الا للتمويه وصرف النظر عن ان العديد من هذه الصحافة قد تكون كلب الحراسة ليس للديمقراطية بل للنظام والسلطة والحزب والمؤسسة التجارية التي تخدمها ولصاحبها طبعا. ولعل في سلوك صحافيي البلاط الاسرائيلي في هذه الحرب ما يؤكد ذلك! لكن ليس عندهم فقط. فقد عرفت في هذه الحرب رئيس تحرير يمارس هذه الكلبنة على اصولها ليس بأمانته بل بعوائه وبشتمه للشرفاء. فالكلاب لا تعرف فقط بأمانتها بل ايضا بنباحها وعضها ورائحتها النتنة حين لا تجد من ينظفها ويغسلها. وفي هذه الحرب ايضا كانت كلاب الحراسة الاسرائيلية التي لجمتها الرقابة العسكرية، كانت تخاطب الرأي العام الاسرائيلي ليس باعتبارها صحافة بل باعتبارها قيادة اركان، اي انها كانت امينة لجنرالات الحرب، والكلب الكبير يجمع حوله كلابا صغارا فينشئ قافلة من الكلاب ويختلط كل شيء حتى انك لم تعد تعرف من في فئة الكلاب ومن في القافلة، فصارت القافلة تنبح والكلاب تسير! فمن هو عدو الصحافة الذي قال عنها انها كلب حراسة فأساء للكلاب قبل ان يسيء للصحافة؟ ثم الم نقل من البداية ان الحرب تفك عقال الجنون؟

---

* كاتب من فلسطين